

(من كتاب الحج وروح العبادة فيه)

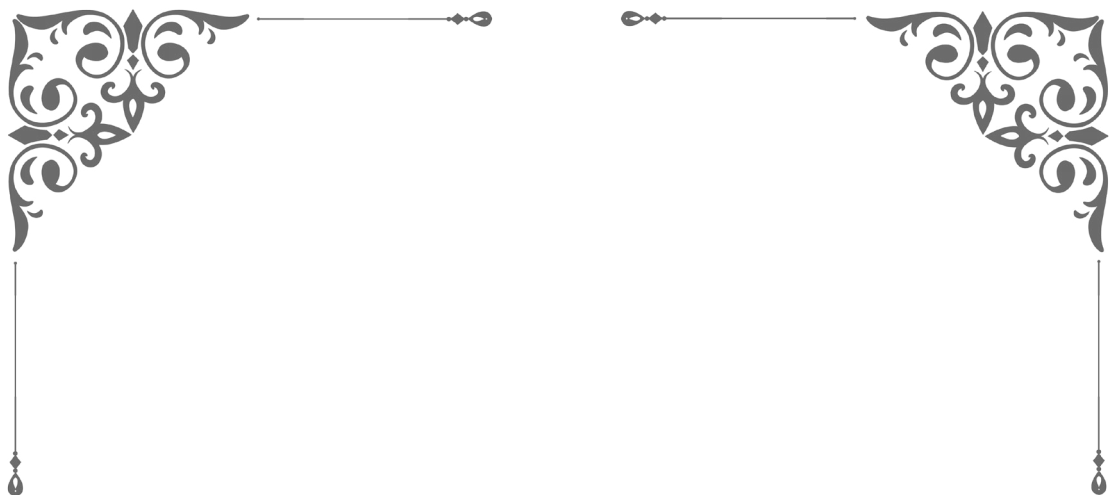
(٩)

# الطواف ومظاهر العبودية فيه

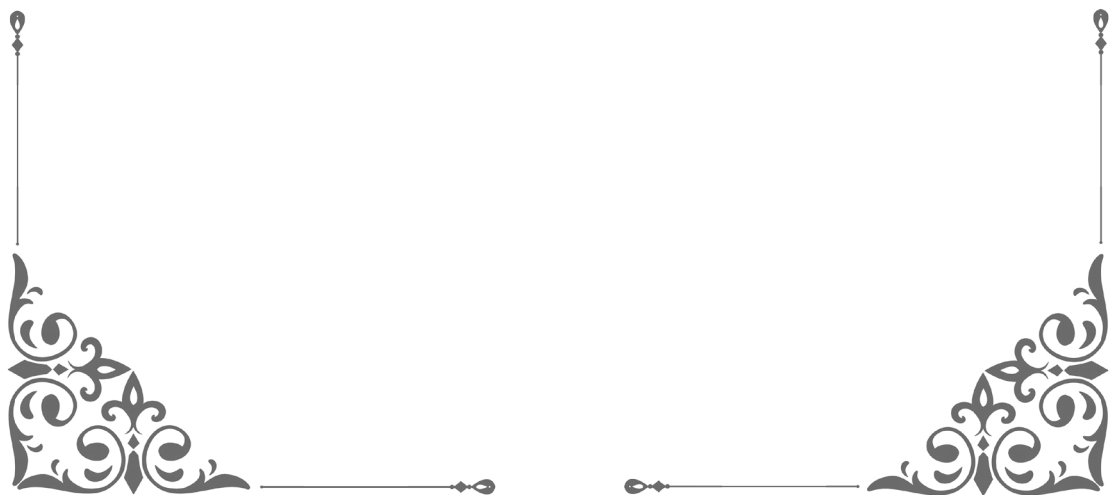


تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني



# محفوظ جميع الحقوق





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطواف ببيت الله الحرام في الحج ركن من أركانه، جاء الأمر به في كتاب الله بقوله تعالى: ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٢٩) (١) وسُمي البيت العتيق بهذا الاسم (لأنه أُعْتِقَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ أَنْ يُسَلِّطُوا عَلَيْهِ) نقله ابن كثير عن مجاهد رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

**وقيل:** لأنَّ عنده تُعْتَقُ الرقاب، وتُغْفَرُ الذنوب، وفيه أقوال أخرى.

والطواف عبادةٌ جليلةٌ القدر، رفيعة المنزلة، عظيمة الأثر على من أدّاها بحضور قلب، فيُدْرِكُ حلاوتها ولذتها، وينتفع بها أعظم انتفاع.

والطواف ليس مجرد مشي وطواف على بنية قائمة شرّفها الله، بل هو عبادةٌ عظيمة جعلها الله لأهل الأرض وسكان السماء،

(١) [سورة الحج: آية ٢٩]



يقول ابن كثير: (وَفِي كُلِّ سَمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ) (١).

**ولا يوجد مكان في الأرض يُطاف عليه إلا الكعبة المُشَرَّفَة،**

أما ما يفعله الجهلة من الطواف حول القبور، فهو ضلالٌ مبين.

**وعبادة الطواف من أعجب العبادات التي تعبد الله بها تعالى**

**عباده؛** فهي عبادة عجيبة في مظهرها، وعجيبة في جوهرها، ولذا

تقف عاجزاً حائراً أمام هذا الأمر الإلهي الذي أمر به عباده،

فتبحث السِّرَّ فلا تجد إلا إجابةً واحدة لا ثاني لها، وهي تعظيم

شعائر الله، والتي هي من تقوى القلوب، وإقامة ذكره.

**وحتى لا تكون عبادة الطواف جوفاء لا روح فيها،** فينبغي

للطائف أن يحضر قلبه فيه، ليتنفع به، ويؤديه على أكمل وجه،

ومما يعين على ذلك:

**استحضار فضل هذه العبادة، واستحضار مكانة البيت،** ولقد

جاءت الأحاديث بفضل الطواف، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) [انظر تفسير ابن كثير: سورة الطور]



## الطواف ومظاهر العبودية فيه



قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أُسْبُوعًا فَأَحْصَاهُ - أَي: يَحْصُرُ عَدَدَهُ فَيَجْعَلُهُ سَبْعًا لَا زِيَادَةَ وَلَا نَقْصَ - كَانَ كَعَتَقِ رَقَبَةٍ" (١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما رفع رجلٌ قدمًا ولا وضعها إلا كُتِبَتْ له عشرٌ حسناتٍ، وحُطَّ عنه عشرٌ سيئاتٍ، ورُفِعَ له عشرٌ درجاتٍ" (٢).

وفي بيت الله الحجر الأسود والركن اليماني، وفي تقبيل الحجر الأسود ومسح الركن اليماني أجور كثيرة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ مَسْحَ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنَ الْيَمَانِيِّ، يُحَطِّانِ الْخَطَايَا حَطًّا" (٣).

تذكر وأنت تطوف بالبيت أنك تقوم بعبادة جليلة، فالطواف حول الكعبة مثل الصلاة إلا أنه استثنى منه الكلام المباح، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الطَّوْفُ حَوْلَ الْبَيْتِ

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد وهذا لفظه، والترمذي.

(٣) رواه الترمذي، والنسائي.



## الطواف ومظاهر العبودية فيه



مِثْلُ الصَّلَاةِ؛ إِلَّا أَنْكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ؛ فَلَا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ" (١).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:  
"الطَّوْافُ صَلَاةٌ، فَأَقِلُّوا فِيهِ الْكَلَامَ" (٢).

وانظر لحال السلف مع هذه العبادة لترى البون الشاسع بيننا وبينهم في تعظيم شعائر الله، ومنها عبادة الطواف، قال عطاء بن أبي رباح: (رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَطُوفَانِ بِالْبَيْتِ جَمِيعًا كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمَا الطَّيْرَ تَخْشَعَا).

وقال: (طَفْتُ وِرَاءَ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمَا يَتَكَلَّمُ فِي الطَّوْافِ).

وعن عبد الكريم بن أبي المخارق قال: قال لنا طاوس: (إِذَا كُنْتُ فِي الطَّوْافِ فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّمَا الطَّوْافُ صَلَاةٌ)

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَسْتَحِبُّونَ إِلَّا يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ فِي الطَّوْافِ؛ إِلَّا لِحَاجَةٍ، أَوْ بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه الطبراني وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير، والألباني في صحيح الجامع.



تَعَالَى، أَوْ مِنْ الْعِلْمِ) (١).

**قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:** (وينبغي للطائف أن يكون في طوافه خاشعًا متخشعًا، حاضر القلب، ملازم الأدب بظاهره وباطنه، وفي هيئته وحركته ونظره، فإنَّ الطواف صلاةً، فيتأدَّب بأدابها، ويستشعر بقلبه عظمة مَنْ يطوف ببيته) (٢).

**فحريُّ بالطائف أن يكون حال طوافه متأدِّبًا بهذه الآداب،** منشغلًا بهذه العبادة عن كل شيء، صارفًا الذهن لها، معتنياً بإيقاعها أحسن موقع، متأملاً ما يقول من دعاء وذكر، فالطواف عبادة كسائر العبادات ينبغي أداؤها على أكمل حال.

**وإذا رأيتَ اليوم حال كثير من الطائفين، وكيف انشغلوا بالخلق، والتصوير والغفلة،** بل ربما تعدَّى هذا إلى النظر المحرَّم، عرفتَ لماذا ضعف أثر الطواف عليهم، وكيف صار الطواف عبادة لا روح فيها عند الكثير، وصار همُّ الطائف بالبيت متى ينتهي منه.

(١) [سنن الترمذي: ٣ / ٢٩٣]

(٢) [المجموع: ٨ / ٥٠]



**واستحضر وأنت تطوف مكانة الكعبة المشرفة ومنزلتها،** فما زالت الكعبة المشرفة معظمةً مكرّمةً في نفوس المؤمنين فطرةً وديانةً، فطرةً بما أودعه الله في القلوب من حب الكعبة وتعظيمها، واشتياق الأرواح إليها، وديانةً بما أمر الله تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها، وبما ارتبط بها من شعائر تعبديةً بصلاةٍ يتّجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها، وبحجٍّ يتكبّد فيه المسلمون المشاقّ والمتاعب على حبٍّ؛ ليؤدّوا المناسك كما أمرهم الله تعالى في صورةٍ تُبهر العالم أجمع.

**وهذا الاستحضر والمعرفة لمكانتها يورث العبد تعظيمها ومحبتها،** ويجعل طوافه بها يكون على حال التعظيم والإجلال، قال الله في بيان هذه المكانة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١).

**فجعل الله بيته مثابةً للناس لا ينتهي شوقهم إليه، وجعله آمناً لمن دخله،** وأمر بتطهيره لكل طائفٍ ومصلٍ وقاصد له عنايةً به،

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]





واهتماماً بشأنه، وأضافه لنفسه الشريفة إضافة تشریف، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبَّاله وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين، يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً، بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا، وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم، فزادت محبته في القلوب، وأقبلت إليه الأفئدة من كل جانب، وقصده المحبون من كل مكان.

**طُفَّ بِهِ مُتَدَكِّراً أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْعِبَادَةِ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ** جعله قبلة للمسلمين، يؤمنونه كل فرض، وإذا استحضرت تفاوت مواقيت الصلوات في العالم عرفت أنه يؤمُّ ويُتَجَّه إليه في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار، فما أعظم هذا البيت، وما أرفع مكانته!

وقال المصطفى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا" (١).**

**وكانت مكانة الكعبة عظيمة القدر، عالية المنزلة عنده** **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ولذا لما رقي على الصفا نظر إلى الكعبة، ومع أنه في

(١) [أخرجه ابن ماجه]



السعي إلا أنه أراد أن يُعَلِّمَ النَّاسَ عظمة البيت وارتباط القلوب به، وأنَّ استقباله حال الدعاء من آداب الدعاء واستجماع القلب فيه.

**قال ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ:** (وفي الأثر: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَجَّ البيت وقضى نسكه، أتته الملائكة، فقالوا له: يا آدم، بَرَّ حُجُّكَ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام)<sup>(١)</sup>.

كَأَنِّي أَمَامَ الْعَتِيقِ ذَهُولُ

وهذا الجلالُ بِسِرِّي يَجُولُ

وَمَا أَنْ وَقَفْتُ بِبَيْتِكَ عَبْدًا

رَأَيْتُ الْجَمَالَ إِلَيْكَ يُوُولُ

فَأَيُّ بَهَاءٍ وَأَيُّ ضِيَاءٍ

إِذَا شَعَّ نُورٌ يَعُمُّ الْفَضَاءَ

فَكَعْبَةُ رَبِّي جَلالٌ وَنُورٌ

وَكَعْبَةُ رَبِّي ائْتِلاقُ السَّمَاءِ

(١) [لطائف المعارف: ٦٣]



## الطواف ومظاهر العبودية فيه



**ويبدأ الطائف طوافه بقوله:** (بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ إِيْمَانًا بِكَ وَتَصَدِيقًا بِكِتَابِكَ، وَوَفَاءً بِعَهْدِكَ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ) ويستلم الحجر ويُقبِّله إن تيسر له ذلك، فإن شق عليه التقبيل استلمه بيده وقبَّل يده، فإن شقَّ عليه استلمه بعصا وقبَّلها، فإن شقَّ عليه أشار إليه بيده وكبر.

**وينشغل بالذكر والدعاء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:** (ويستحب له في الطواف أن يذكر الله تعالى، ويدعوه بما شرع وإن قرأ القرآن سِرًّا فلا بأس، وليس فيه ذكر محدود عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يدعو فيه بسائر الأدعية الشرعية، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختم طوافه بين الركنين بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١). كما كان يختم سائر دعائه بذلك، والطواف بالبيت كالصلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فلا يتكلم فيه إلا بخير) (٢).

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠١]

(٢) [منسك شيخ الإسلام]



وينبغي تذكير نفسك وأنت تطوف بالكعبة أنك في عبادة الله جليلة، وهذا ما يجعلك حاضر القلب في طوافك، مستجمع النفس على القيام به على أحسن حال، وليمتلئ القلب شكرًا لله أَنْ خَصَّكَ بهذه العبادة، واصطفاك لهذا النسك، وجعلك تطوف في أعظم العبادات، وتؤدي ركنًا عظيمًا من أركان الإسلام، وفي زمان فاضل، وأحسن الظنِّ بربك بأنه ما وفقك ويسر لك المجيء إلا ليكرمك ويغفر لك، ويُعطيك سؤالك، ويُجيب دعوتك.

استحضر وأنت تطوف كم ذرفت حول بيت الله من دموع، وكم أُجيبت من دعوات، وكم أكرم الله عنده من عبد، وكم غُفرت هنا من ذنوب وخطيئات، وكم خرج طائفون بعد طوافهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، ففي فضل طواف الوداع، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ، فيقول: اعمل فيما تستقبل؛ فقد غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى) (١).

(١) رواه الطبراني، والبيزار، واللفظ له، وهو حديث حسن.



فإذا ما انتهى الطائفُ بالبيت من طوافه يكون حاله بين القبول والرجاء - رجاء القبول وخوف الرد- مع إحسان الظن بالله، ثم يصلي خلف مقام إبراهيم إن تيسر، وإلا صلى في أي مكان، ويقرأ قبل صلاة الركعتين قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (١).

امثالاً لأمر الله الأمر بهذا، ومتأسياً بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي فعل ذلك، واستشعار ذلك مما يزيد الإيمان، ووجدان لذة العبادة فيها، ويتذكر هنا مقام إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي وقف على هذا الحجر ليرفع بناء البيت، ومقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وقف في هذا المكان وصلى.

إن إحياء هذه العبوديات في النفس من أعظم الأسباب لإكمال هذه العبادة، وأدائها على أحسن حال، وإيقاعها على أحسن موقع.

وإذا رأيت هؤلاء الخلق الذي يُعدون بالملايين، وهذه الأعداد الهائلة التي تطوف بالبيت الحرام، ولا ينقطع الطواف

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]



عن الكعبة في أزمنتنا لحظة واحدة، ظهرت لك في بيت الله عبر  
وآيات، منها: ما جعله الله في قلب كل مؤمن ومؤمنة - كما تقدّم -  
من حبّ للكعبة، وأنس عند النظر إليها، والجلوس إلى جوارها،  
أو الطواف بها؛ فكم ترتجف القلوب فرحًا إذا رأتها، وكم من  
عبرات ودمعات تُسكب إذا شاهدتها، بل إن كثيرًا من النفوس  
المؤمنة تتمنى البقاء بجوارها وعدم مغادرتها أبدًا، كل ذلك حبًّا  
لهذه البنية العظيمة، فيا لله كم جعل الله في بيته من آيات!

وما إن رأيتُ ستارَ العتيقِ

بقلبي هواهُ أسيرٌ حبيسٌ

أوجّهُ وجهي له بخُشوعِ

كوجهِ العروسِ لوجهِ العريسِ

أسأَلُ نفسي وقومي هُجوعُ

أحقًا أتيتُ لأغلى الرُبوعُ؟

أنام وأصحو وقلبي يُلبّي

وتنسابُ من مُقلتيّ الدموعُ



وهذا الشوق إلى بيت الله لا ينقطع عنهم مهما عادوا إليه، بل تشتاق له النفس بمجرد مغادرته ولو كان العهد قريباً، وهذا ما خصَّ اللهُ به بيته دون سائر البيوت.

**ومن مظاهر آيات الله في الطواف: إذعان هذه الأعداد الهائلة للطواف حول الكعبة، فمع أنها في ظاهرها بنية صامتة لكنّها عند أهل الإيمان بيتٌ عظيم، له منزلته الرفيعة في شرع الله، فيطوف به أهل الإيمان استجابة لأمر ربهم، ورغبة في الأجر والثواب الذي جاء فيه.**

**وهنا تنبيه مهم ينبغي الإشارة إليه، وهو أنّ طواف المسلمين حول الكعبة، وبين الصفا والمروة وسائر مناسك الحجّ إنّما هو استجابة لأمر الله الذي أمرهم بذلك، فالطواف في حقيقته عبادة لله، وليس لذات الكعبة، ولئن كان للكعبة المكانة الشرعية في الإسلام، والوجدانية في نفوس المسلمين، إلا أنّهم يطوفون تعبداً لله، ولذا يقرأ المؤمنون قول الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣)؛ وهم حال طوافهم بهذا البيت لا يدعون البيت،**

(١) [سورة قريش: آية ٣]



## الطواف ومظاهر العبودية فيه



وإنما يدعون الله تعالى، فالطائف يُكثر من ذكر الله، ويكثر من دعائه، ويكثر من قراءة القرآن، ويخضع لربه ويخشع، ويتواضع بين يديه.

**فكن معظمًا ربك، مستجمع القلب عند الطواف، كثير الذكر والدعاء لتذوق حلاوة الطواف، وتنال ثمراته.**

